ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ(١) فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) ﴾

استجاب الله تعالى دعاء نبيه نوح ـ عليه السلام ـ فى النُّصْرة على قومه ، فأمره بأن يصنع الفلك . والفُلْك هى السفينة ، وتُطلق على المفرد والجمع ، قال تعالى : ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ﴾ [الشعراء] وقال : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ [فاطر] فدلَّتْ مرة على المفرد ، ومرة على الجمع .

وقوله تعالى : ﴿ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٢٧) ﴾ [المؤمنون] دليل على أن نوحاً ـ عليه السلام ـ لم يكن نجاراً كما يقول البعض ، فلو كان نجاراً لهداه عقله إلى صناعتها ، إنما هو صنعها بوحى من الله وتوجيهاته ورعايته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] فالمعنى : اصنع الفُلْك ، وسوف أوفقك إلى صناعتها ، وأهديك إلى ما يجب أن يكون ، وأصحح لك إنْ أخطأت فى وضع شىء فى غير موضعه ، إذن : أمَرْتُ وأعَنْتُ وتابعتُ . والوحى : هو خطاب الله لرسوله بخفاء .

ثم يقول تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧) ﴾ [المؤمنون]

---

(١) التنور : مكان تفجُّر الماء . والكانون الذى يُخبز فيه . وقوله تعالى : ﴿ وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧) ﴾ [المؤمنون] أى : تفجرت الأرض بماء كثير أو تفجرت بماء يشبه فوران النار فى التنور . [القاموس القويم ١/١٠٢] .

وهنا لم يتعرض السياق للفترة التي صنع فيها نوح السفينة ، والتي جاءت في قوله تعالى : ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود] ذلك لأنهم لا يعلمون شيئاً عن سبب صناعتها .

وفي موضع آخر يُعلمنا - سبحانه وتعالى - عن كيفية صُنْعها فيقول : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣)﴾ [القمر] وقلنا : إن الدُّسُر : الحبال التي تُضمُّ بها ألواح الخشب بعضها إلى بعض شريطة أن تكون جافة ، وتُضَم إلى بعضها بحكمة حتى إذا ما نزل الماء وتشربت منه يزيد حجمها فتسدُّ المسام بين الألواح ، كما نراهم مثلاً يصنعون براميل الزيت من شرائح الخشب .

وقد صنع أحدهم سفينة من البَرْدى بهذه الطريقة ، وسافر بها إلى أمريكا واستخدم فيها الحبال بدلاً من المسامير .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا .. (٢٧)﴾ [المؤمنون] يعني : بإنجاء المؤمنين بك ، وإهلاك المكذبين ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ (٢٧)﴾ [المؤمنون] والتنور : هو الفرن الذي يخبزون فيه الخبز ، ويقال : إنه كان موروثاً لنوح من أيام آدم ، يفور بالماء يعني : يخرج منه الماء ، وهو في الأصل محلٌ للنار ، فيخرج منه الماء وكأنه يغلي . لكن هل كل الماء سيخرج من التنور ؟ الماء سيخرج من كل أنحاء الأرض وسينزل من السماء ، وفوران التنور هو إيذان بمباشرة هذه العملية وبداية لها .

إذا حدث هذا ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ (٢٧)﴾ [المؤمنون] يعني : احمل وأدخل فيها زوجين ذكراً وأنثى من كل نوع من المخلوقات ، كما في قوله تعالى : ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)﴾ [المدثر] يعني : أدخلكم ، وقال سبحانه : ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ .. (٣٢)﴾

[القصص] يعنى : أدخلها ، وقال سبحانه : ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر]

ومن مادة (سلك) أخذنا فى أعرافنا اللغوية . نقول : سلَّك الماسورة أو العين يعنى : أدخل فيها ما يزيل سدَّتها .

والتنوين فى ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ.. ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : من كل شىء[1] نريد حفظ نوعه واستمراره ؛ لأن الطوفان سيُغرق كل شىء ، والحق - تبارك وتعالى - يريد أن يحفظ لعباده المؤمنين مُقوِّمات حياتهم وما يخدمهم من الحيوانات والأنعام وجميع أنواع المخلوقات الأخرى من كل ما يلدُ أو يبيض .

ومعنى ﴿زَوْجَيْنِ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون] ليس كما يظنُّ البعض أن زوج يعنى : اثنين ، إنما الزوج يعنى فرد ومعه مثله ، ومنه قوله تعالى : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ.. ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام]

فسمَّى كلَّ فرد من هذه الثمانية زوجاً ؛ لأن معه مثله .

هذا فى جميع المخلوقات ، أما فى البشر فلم يقُلْ زوجين ، إنما قال ﴿وَأَهْلَكَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون] أياً كان نوعهم وعددهم ، لكن الأهلية هنا أهلية نسب ، أم أهلية إيمانية ؟

الأهلية هنا يُراد بها أهلية الإيمان والاتباع ، بدليل أن الله تعالى

---

(١) قال الحسن البصرى : لم يحمل نوح فى السفينة إلا ما يلد ويبيض ، فأما البق والذباب والدود فلم يحمل شيئاً منها ، وإنما خرج من الطين . قاله القرطبى فى تفسيره [٤٦٥٣/٦].

شرح هذه اللقطة فى آية أخرى ، فقال على لسان نوح عليه السلام :
﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي..(٤٥)﴾ [هود]

فقال له ربه : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ (٤٦)﴾ [هود]

فبنوة الأنبياء بنوة عمل واتباع ، فإنْ جاءت من صُلْبه فأهلاً وسهلاً ، وإنْ جاءت من الغير فأهلاً وسهلاً . لذلك النبى ﷺ يقول عن سلمان الفارسى : « سلمان منا آل البيت »(١) فقد تعدى أن يكون مسلماً إلى أن صار واحداً من آل البيت .

وكذلك أدخل فيها أهلك من النسب بدليل أنه استثنى منهم : ﴿إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ (٢٧)﴾ [المؤمنون] وكان له امرأتان ، واحدة كفرت به وخانته هى وولدها كنعان ، والتى ذُكرت فى قول الله تعالى فى سورة التحريم : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا..(١٠)﴾ [التحريم]

وكنعان(٢) هو الذى قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء وهذه اللقطة لم تذكر هنا ؛ لأن أحداث هذه القصة جاءت مُفرَّقة فى عدَّة مواضع ، بحيث لو جُمعت تعطى الصورة العامة للقصة ، فإنْ قُلْتَ : فلماذا لم تأتِ مرة واحدة كما فى قصة يوسف عليه السلام ؟

نقول : جاءت قصة يوسف كاملة فى موضع واحد ليعطينا بها الحق - سبحانه وتعالى - نموذجاً للقصة الكاملة المحبوكة التى تدل على قدرته تعالى على الإتيان بالقصة مرة واحدة لمن أراد ذلك ، فإنْ

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٩٨/٣) من حديث عمرو بن عوف المزنى . قال الذهبى والعجلونى فى كشف الخفاء (٥٥٨/١) : سنده ضعيف .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤٤٦/٢) « قوله ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ..(٤٢)﴾ [هود] هذا هو الابن الرابع واسمه يام » .

أردتها كـاملة فنحن قادرون علـى ذلك ، وها هى قصة يـوسف ، إنما الهـدف من القصص فى القـرآن هو تثبـيت فؤاد النبـى ﷺ كمـا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ [الفرقان] ؛ لأنه ﷺ سيقـابل مواقف تكذيب وعداء وعناد من قـومه ، وسيتـعرض لأزمات شديدة ويحتاج إلى ما يُسلِّيه ويُثبِّته أمام هذه الأحداث .

لذلك جـاءت لقطات القـصص القرآنى مـتـفرقـة فى عدة مـواضع لتـسلية رسـول الله ، والتـخفـيف عنه كلمـا تعرَّض لمـوقف من هذه المواقف ، وبجَـمْع هذه اللقطات المتفـرقة تتكون لديك القـصة الكاملة المستوية .

وقد أدخل نوح معه زوجتـه الأخرى المؤمنة وأولاده : سام وحام ويافث وزوجاتهم ، فـهؤلاء ستة ونوح وزوجـه فهم ثمانية ، ومـعهم اثنان وسـبعـون من المؤمنين وأصـول الإيمـان الباقى مع نوح عليـه السلام .

ولما كـان الحكم بغرق مَنْ كفـر من أهله أمراً لا استثناف فـيه ، قال تعالى بعدها : ﴿ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [هود] لكن ظلمـوا مَنْ ؟ ظلمـوا أنفسـهم حـين كـفـروا بالله ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

صحيح أنت حين كفرت أخذتَ حقَّ الله فى أنه واحد أحد موجود ، وإله لا معـبود غيـره ، وأعطيتَـه لغيره ، لكن هذا الظـلم لم يضر الله تعـالى فى شىء إنمـا أضـرَّ بك وظلمتَ به نفـسك ، ومنتـهى الحُـمْق والسفه أن يظلم الإنسان نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) ﴾

﴿ اسْتَوَيْتَ (٢٨) ﴾ [المؤمنون] يعنى : استعليتَ وركبتَ أنت ومَنْ معك على الفُلْك واطمأنّ قلبك إلى نجاة المؤمنين معك ﴿ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّه (٢٨) ﴾ [المؤمنون] فلا بد للمؤمن أن يستقبل نعَم الله عليه بالحمد ، وبالاَّ تُنسيه النعمةُ جلالَ المنعِم ، فساعةَ أنْ يستتب لك الأمر على الفُلْك وتطمئن بادر بحمد الله .

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [يونس]

وكان الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا حصانة ، ويجعل لنا أسوة بذاته سبحانه ، حتى إذا ما تعرضنا لنكران الجميل ممَّنْ أحسنَّا إليه لا نغضب ؛ لأن الناس ينكرون الجميل حتى مع الله عز وجل .

لذلك لما قال موسى ـ عليه السلام ـ : يا ربِّ أسألك ألاَّ يُقال فيَّ ما ليس فيَّ . يعنى : لا يتهمنى الناس ظلماً ، فردَّ عليه ربه عز وجل : « يا موسى ، كيف ولم أصنع ذلك لنفسى » .

إذن : فهذه مسألة لا يطمع فيها أحد ، ولو أن كل فاعل للجميل يضِنُّ به على الناس لأنهم ينكرونه لَفسد الحال ، وتوقفت المصالح بين الخَلْق ، وضَنَّ أهل الخير بخيرهم ؛ لذلك وضع لنا ربنا ـ عز وجل ـ الأُسْوة بنفسه سبحانه .

والإنسان إنْ كان حسيساً لا يقف عند إنكارِ الجميل ، إنما يتعدّى ذلك فيكره مَنْ أحسن إليه ويحقد عليه ، ذلك لأن الإنسان مجبول على حب النفس والتعالى والغطرسة ، فإذا ما رأى مَنْ أحسن إليه كرهه ؛ لأنه يدكُّ فيه كبرياء نفسه ، ويَحدُّ من تعاليه .

ومن هنا قالوا : « اتق شرَّ مَنْ أحسنت إليه » لماذا ؟ لأنه يخزَى ساعة يراك ، وهو يريد أنْ يتعالى ، ووجودك يكسر عنده هذا التعالى .

إذن : وطِّنْ نفسك على أن الجميل قد يُنكَر حتى لو كان فاعله رب العزة سبحانه ، فلا يحزنك أنْ يُنكَر جميلك أنت .

وعن ذلك قال الشاعر[1] :

يَسير ذَوُو الحاجَات خلفكَ خُضَّعاً ... فَإنْ أدركُوهَا خلَّفُوكَ وهَرْوَلُوا

وأفضلُهم مَنْ إنْ ذُكِـرْت بسىء ... توقَّفَ لا ينفى وقد يتقوَّل

فَلا تَدعِ المعْروفَ مَهمـا تـنكَّروا ... فَإنَّ ثوابَ الله أرْبَى وأجزَلُ

فالمعنى : إذا استويتَ أنت ومَنْ معك ، واستتبَّ لك الأمر على الفُلْك ، فإياك أنْ تغتَرَّ أو تناى بجانبك فتنسى حَمْد الله على هذه النعمة ؛ لذلك أمرنا حين نركب أى مركب أن نقول : « بسم الله مجريها ومرساها » لأنك ما أجريتها بمهارتك وقوتك ، إنما باسم الله الذى ألهم ، وباسم الله الذى أعان ، وباسم الله الذى تابعنى ، ورعانى بعينه ، وما دُمْتَ تذكر المنعم عند النعمة وتعترف لصاحب الفضل بفضله يحفظها لك .

أما أنْ تنكرها على صاحبها ، وتنسبها لنفسك ، كالذى قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] فيقول: ما دام الأمر كذلك ، فحافظ أنت عليه .

---

(١) من قول الشيخ رحمه الله .

حتى فى ركوب الدَّابَّة يُعلِّمنا ﷺ أنْ نقول : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون »[1] .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِى نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) ﴾ [المؤمنون] وذكر النجاة لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة .

ثم يُعلِّمه ربه دعاءً آخر يدعو به حين تستقر به السفينة على الجُودى ، وعندما ينزل منها ليباشر حياته الجديدة على الأرض :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) ﴾

وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ .. (٤٨) ﴾ [هود] لأنك ستنزل منها وليست هى مكان معيشتك .

وكذلك دعا النبى ﷺ فقال كما حكى القرآن : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ .. (٨٠) ﴾ [الإسراء]

فلا بُدَّ أن تذكر فى النعمة المنعمَ بها ، لذلك فالذين يُصابون فى نعم الله عليهم بأعين الحاسدين ، ثِقْ تمام الثقة أنهم حين رأوْا نعمة الله عليهم لم يذكروا المنعِم بها ، ولو أن الإنسان حين يرى نعمة من نعم الله عليه فى ماله أو ولده فيقول : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ووضع النعمة فى حماية المنعم لضمن دوام نعمته وسلامتها من أعين الحاسدين ؛ لأنه وضعها تحت قانون الصيانة الإلهية .

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٣٤٢) كتاب الحج من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّر ثلاثاً ، ثم قال « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » ، وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٢/١٤٤ ، ١٥٠) .

ومعنى : ﴿ مُنزَلاً مُّبَارَكًا .. (٢٩) ﴾ [المؤمنون] الشيء المبارك : الذى يعطى فوق ما يتصور من حجمه ، كأن يعيش شخص براتب بسيط عيشة كريمة ويُربِّى أولاده أفضل تربية ، فيتساءل الناس : من أين له ذلك ؟ ونقول : إنها البركة التى تحلّ فى القليل فيصير كثيراً ، صحيح أن الوارد قليل لكن يُكثِّره قلة المنصرف منه .

وقد مثّلنا لذلك بواحد يرتزق من الحلال ، فيُيسِّر الله أمره ، ويقضى مصالحه بأيسر تكلفة ، فإذا مرض ولده مثلاً يشفيه الله بقرص أسبرين وكوب من الشاى ، ولا يفزع لمرضه ؛ لأنه مطمئن القلب ، راضى النفس ، واثق فى معونة الله . أما الذى يتكسب من الحرام ويأكل الرشوة .. الخ إنْ مرض ولده يُهرع به إلى الأطباء ويتوقع فى ولده أخطر الأمراض ، فإنِ ارتشى بعشرة صرف عليها مائة .

وسبق أن قلنا : إن هذه البركة هى رزق السَّلْب الذى لا يزيد من دخلك ، إنما يُقلِّل من مصروفاتك .

وكلمة ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) ﴾ [المؤمنون] أم أنه سبحانه المُنزل الوحيد ؟ الله خير المنزلين يعنى : أباح أن يقال للعبد أيضاً مُنزِل حين يُنزل شخصاً فى مكان مريح ، كأن يُسكنه مثلاً فى شقة مريحة ، أو يستقبله ضيفاً عليه .. الخ . وإنْ كنتَ مُنزلاً بهذا المعنى ، فالله عز وجل هو خير المنزلين ؛ لأنه سبحانه حين يُنزلك ينزل على قَدْره تعالى ، وعلى قَدْر كرمه وعطائه .

إذن : الحق - تبارك وتعالى - لم يضنّ عليه خَلْقه أنْ يصفهم بما وصف به نفسه ، فلم يضنّ عليك أنْ يصفك بالخَلْق فقال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] فأثبت لك صفة الخَلْق ، لأنك توجد

معدوماً مع أنك تُوجده من موجـود لله ، كأنْ تصنع من الرمل والنار كوباً من الزجاج مثلاً ، لكن ما توجـده يظل جامداً على حالته لا ينمو ولا يتناسل ، وليست فيه حياة ، ومع ذلك سماك ربك خالقاً ، وكذلك قال : ﴿ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) ﴾ [الأنبياء] وقال : ﴿ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وكمـا أن الله عز وجل لم يضنّ عليك بهـذه الصفـات ، فلا تضنّ عليه سبحـانه بأنه خير المنزلين ، وخير الوارثين ، وخـير الماكرين ، وأحسن الخالقين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ﴾

﴿ فِي ذَٰلِكَ .. (٣٠) ﴾ [المؤمنون] يعني : فيما تقدم ﴿ لَآيَاتٍ .. (٣٠) ﴾ [المؤمنون] عبـر وعظات وعـجائب ، لو فكّر فـيهـا المرء بعـقل محـايد لانتـهى إلى الخيـر ﴿ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ﴾ [المـؤمنون] فلا تظن أن الابتلاء مقصور على الظلمة والكافرين الذين أخذهم الله وأهلكهم ، فقد يقع الابتـلاء بمَنْ لا يسـتحق الابتـلاء ، وحـين يبتـلى اللهُ أهلَ الخيـر والصلاح فما ذلك إلا ليزداد أجرهم وتُرفع مكانتهم ويُمَحّص إيمانهم .

ومن ذلك الابتلاءات التي وقعت بالمسلمين الأوائل ، فإنها لم تكُنْ كراهيـة لهم أو انتقـاماً منهم ، إنمـا كانت تصـفيـة لمعدنهـم وإظهاراً لإيمانهم الراسخ الذي لا يتـزعزع ؛ لأنهم سيحـملون دعوة الله إلى أنْ تقوم الساعة ، فلا بُدَّ من تمحيصهم وتصفيتهم .

كما قال سـبحانه : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾ [العنكبوت] لا ، لابُدَّ من الابتلاء الذي يُميِّز الصادقين ممَّنْ

يعبد الله على حَرْف ، لا بُدَّ أن يتساقط هؤلاء من موكب الدعوة ، ولا يبقى إلا المؤمنون الراسخون على إيمانهم الذين لا تزعزعهم الأحداث .

إذن : المعنى ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ۝٣٠﴾ [المؤمنون] يعني : أهل الإيمان الذين لا يستحقون العذاب ؛ لأننا نحب أن نرفع درجاتهم ونُمحِّص إيمانهم ليكونوا أهْلاً لدعوة الله ؛ لذلك يقول الحق - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي :

« وعزتي وجلالي ، لا أُخرج عبدي من الدنيا وقد أردتُ به الخير حتى أوفيه ما عمله من السيئات ، من مرض في جسمه وخسارة في ماله ، وفقد في ولده ، فإذا بقيتْ عليه سيئة ثقَّلت عليه سكرات الموت حتى يأتيني كيوم ولدته أمه .. وعزتي وجلالي ، لا أخرج عبدي من الدنيا وقد أردتُ به الشر حتى أوفيه ما عمله من الحسنات ، صحةً في جسمه ، وبركة في ماله وولده ، فإذا بقيتْ له حسنة خففتُ عليه سكرات الموت حتى يأتيني وليست له حسنة » .

إذن : فالابتلاء كما يكون انتقاماً من الكفرة والظلمة يكون كذلك تربيباً للنفع ، وتمحيصاً للإيمان ، وإرادة للثواب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٣١﴾

أي : من بعد قوم نوح عليه السلام ، وقلنا : إن القرن : الزمن الذي يجمع أُناساً متقاربين في مسائل الحياة ، وانتهى العلماء إلى أن

القرن مائة عام ، أو إلى ملك مهما طال ، أو رسالة مهما طالتْ ، كلها تسمى قَرْناً[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

جاء بعد قوم نوح عليه السلام قوم عاد ، وقد أرسل الله إليهم سيدنا هوداً عليه السلام ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف] وقد دعاهم بنفس دعوة نوح : ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [المؤمنون] وقال لهم أيضاً : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

إذن : هو منهج مُوحَّد عند جميع الرسالات ، كما قال سبحانه : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

فدين الله واحد ، نزل به جميع الرسل والأنبياء ، فإنْ قلتَ : فما بال قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة]

نقول : نعم ، لأن العقائد والأصول هي الثابتة التي لا تتغير :

---

(١) قال الأزهري : القرن أهل كل مدة كان فيها نبيّ أو كان فيها طبقة من أهل العلم ، قلّتْ السنون أو كثُرت ، والدليل على هذا قول النبي ﷺ : « خيركم قرني - يعني أصحابي - ثم الذين يلونهم - يعني التابعين - ثم الذين يلونهم - يعني الذين أخذوا عن التابعين » . وقال القرطبي في تفسير الآية (٤٦٥٤/٦) : « هم قوم عاد . والرسول هود ؛ لأنه ما كانت أمة أنشئت في إثر قوم نوح إلا عاد » .

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، أمّا المنهج والشريعة الخاصة بالفروع فهى محلُّ التغيير بين الرسل ؛ لأنها أمور تتعلق بحركة الحياة ، والحق - تبارك وتعالى - يعطى لكل بيئة على لسان رسولها ما يناسبها وما يعالج أمراضها وداءاتها .

والشِّرْعة : هى القانون الذى يحكم حركة حياتك ، أمّا الدين فهو الأمر الثابت والموحَّد من قبل الله - عز وجل - والذى لا يملك أحد أنْ يُغيِّر فيه حرفاً واحداً .

لذلك ، كانت آفة الأمم أنْ يجعلوا أنفسهم فرَقاً مختلفة وأحزاباً متباينة ، وهؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام]

وتأمل : ﴿ فَرَّقُوا دِينَهُمْ .. (١٥٩) ﴾ [الأنعام] ولم يقُلْ : فرّقوا شريعتهم ولا منهجهم ، ذلك لأن الدين واحد عند الله ، أمّا المناهج والشرائع فهى مجال الاختلاف على حَسْب ما فى الأمة من داءات ، فهؤلاء كانوا يعبدون الأوثان ، وهؤلاء كانوا يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء كانوا يجحدون نعَم الله .. الخ .

وسبق أنْ أوضحنا أن اختلاف الداءات فى هذه الأمم ناتج عن العزلة التى كانت تبعدهم ، فلا يدرى هذا بهذا ، وهم فى زمن واحد . أمّا فى رسالة الإسلام - هذه الرسالة العامة الخاتمة - فقد جاءت على موعد من التقاء الأمم وتواصل الحضارات ، فما يحدث فى أقصى الشمال يعرفه مَنْ فى أقصى الجنوب ؛ لذلك توحدت الداءات ، فجاء رسول واحد خاتم بتشريع صالح لجميع الزمان ولجميع المكان ، وإلى قيام الساعة .

وآفة المسلمين في التعصُّب الأعمى الذي يُنزل الأمور الاجتهادية التي ترك الله لعباده فيها حريةً واختياراً منزلةَ الأصول والعقائد التي لا اجتهادَ فيها ، فيتسرَّعون في الحكم على الناس واتهامهم بالكفر لمجرد الاختلاف في وجهات النظر الاجتهادية .

نقول : من رحمة الله بنا أنْ جعل الأصول واحدة لا خلافَ عليها ، أما الفروع والأمور الاجتهادية التي تتأتَّى بالفهم من المجتهد فقد تركها الله لأصحاب الفهم ، وينبغي أنْ يحترم كُلٌّ منّا فيها رأى الآخر ، بدليل قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣)﴾ [النساء]

وإلا لو أراد الحق سبحانه لَمَا جعل لنا اجتهاداً في شيء ، ولجاءتْ كل مسائل الدين قهرية ، لا رأيَ فيها لأحد ولا اجتهاد ، أمّا الحق - سبحانه وتعالى - فقد شاءت حكمته أن يجمعنا جَمْعاً قهرياً على الأمور التي إنْ لم نجمع عليها تفسد ، أما الأمور التي تصلح على أي وجه فتركها لاجتهاد خَلْقه .

فعلينا - إذن - أنْ نحترم رأى الآخرين ، وألاّ نتجرأ عليهم بل لنحترم ما اختاره الله لنا من حرية الفكر والاجتهاد .

وأُسْوتنا في هذه المسألة سيرة رسول الله ﷺ ، وسلف هذه الأمة في غزوة الأحزاب ، فلما هَبَّتْ الريح على معسكر الكفار فاقتلعت خيامهم وشتتت شملهم وفَرُّوا من الميدان انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة ، لكن سرعان ما أمره ربه بالتوجه إلى بني قريظة لتأديبهم ، وأخبره - سبحانه وتعالى - أن الملائكة ما زالت على حال استعدادها ، ولم يضعوا عنهم أداة الحرب ، فجمع رسول الله الصحابة

وقال لهم : « مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة »[1] .

وفعلاً ، سار الصحابة نحو بني قريظة فيما بين العصر والمغرب ، فمنهم مَنْ خاف أنْ يدركه المغرب قبل أنْ يصلي العصر ، فصلى في الطريق ومنهم مَن التزم بأمر رسول الله ﷺ بألاَّ يصلي إلا في بني قريظة ، حتى وإن أدركه المغرب ، حدث هذا الخلاف إذن بين صحابة رسول الله وفي وجوده ، لكنه خلاف فرعي ، لَمَّا رفعوه إلى رسول الله وافق هؤلاء ، ووافق هؤلاء ، ولم ينكر على أحد منهم ما اجتهد .

إذن : في المسائل الاجتهادية ينبغي أن نحترم رأى الآخرين ؛ لذلك فالعلماء ـ رضي الله عنهم ـ وأصحاب الفكر المتزن يقولون : رأيي صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب . فليت المسلمين يتخلصون من هذه الآفة التي فرَّقتهم ، وأضعفتْ شوكتهم بين الأمم . ليتهم يذكرون دائماً قول الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩)﴾ [الأنعام]

ولما تكلم الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن مسألة الوضوء ، قال سبحانه :

﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ .. (٦)﴾ [المائدة]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٤١١٩) وكذلك مسلم في صحيحه ـ كتاب الجهاد والسير (ح ٦٩) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ نادى فيهم يوم انصرف عنهم الأحزاب : « ألاَّ يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة » وفي لفظ « العصر » .

نلحظ أنه تعالى عند الوجه قال ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦)﴾ [المائدة] دون أن يحدد للوجه حدوداً ، لماذا ؟ لأن الوجه لا خلافَ عليه بين الناس ، لكن فى الأيدى قال : ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ .. (٦)﴾ [المائدة] فحدد اليد إلى المرفق ؛ لأنها محل خلاف ، فمن الناس مَنْ يقول : الأيدى إلى الكتف . ومنهم مَنْ يقول : إلى المرفق . ومنهم مَنْ يقول : هى كف اليد .

لذلك حدَّدها ربنا - عز وجل - ليُخرجنا من دائرة الخلاف فى غَسْل هذا العضو ، ولو تركها - سبحانه وتعالى - دون هذا التحديد لكانَ الأمر فيها مباحاً : يغسل كل واحد يده كما يرى ، كذلك فى الرأس قال سبحانه : ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ .. (٦)﴾ [المائدة] وتركها لاحتمالات الباء التى يراها البعض للإلصاق ، أو للتعدية ، أوْ للتبعيض .

إذن : حين ترى مخالفاً لك فى مثل هذه الأمور لا تتهمه ؛ لأن النص أجاز له هذا الاختلاف ، وأعطاه كما أعطاك حقَّ الاجتهاد .

ثم قال الحق سبحانه :

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣)﴾

تكلمنا عن معنى ﴿الْمَلأُ .. (٣٣)﴾ [المؤمنون] وهم عَيْن الأعيان وأصحاب السلطة والنفوذ فى القوم ، والذين يضايقهم المنهج الإيمانى ، ويقضى على مكانتهم ، ويقف فى وجه طغيانهم وسيطرتهم واستضعافهم للخلق .

﴿وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون] تماماً كما حدث مع سابقيهم من قوم نوح ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون] مادة : ترف مثل فرح ، نقول : ترف الرجل يترف إذا تنعَّم ، فإذا زدْتَ عليها الهمزة (أترف) نقول : أترفته النعمة ، أترفه الله ، يعنى : كانت النعمة سبب طغيان ، ووسَّع الله عليه فى النعمة ليتسع فى الطغيان .

وفى هذا المعنى ورد قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام] يعنى من منهج الحق ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ[1] ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام]

ذلك ، ليكون الأخْذ أقوى وأعنف وأبلغ فى الإيلام والحسرة ، وسبق أن ذكرنا تشبيهاً أضحك الحاضرين كثيراً ، ولله تعالى ـ المثل الأعلى ـ ، قلنا : إن الله تعالى إذا أراد أنْ يُوقع معانداً لا يُوقعه من فوق الحصيرة ، إنما يوقعه من فوق كرسى عالٍ ومكانة رفيعة ، ليكون (الهَدْر) أقوى وأشدّ .

فإن أخذ الإنسان العادى الذى لا يملك ما يتحسر عليه من مال أو جاه أو منصب ، فالأمر هيِّن ، أمّا حين يُرقِّيه ويُعلى منزلته ويُترفه فى النعيم ، ثم يأخذه على هذه الحال فلا شكَّ أنه أَخْذ عزيز مقتدر ، وهذا أشدُّ وأنكَى .

إذن : أترفناهم يعنى : وسَّعنا عليهم وأمددناهم بالنعم المختلفة ليزدادوا فى كفرهم وطغيانهم ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿فَذَرْهُمْ فِي

(١) أبلس : حزن ويئس وتحيَّر وسكت غماً وهماً أو سكت لانقطاع حجته . [القاموس القويم ١/٨٢] .

غَمْرَتِهِمْ[1] حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون]

إن الله تعالى يمدُّ لهؤلاء فى وسائل الغىّ والانحراف ليزدادوا منها ، ويتعمقوا فى آثامها لنتعمق نحن فى عذابهم والانتقام منهم .

ثم يحكى القرآن عنهم هذه المقولة التى سارت على ألسنتهم جميعاً فى كل الرسالات : ﴿ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [المؤمنون] وكأن هذه الكلمة أصبحتْ لازمة من لوازم المكذِّبين للرسل المعاندين لمنهج الله ، ثم يؤكدون على بشرية الرسول فيقولون : ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المؤمنون] ألم يقُل كفار مكة لرسول الله ﷺ : ﴿ مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الفرقان]

سبحان الله ، كأنهم يتكلمون بلسان واحد مع اختلاف الأمم وتباعد الأزمان ، لكن كما يقولون : الكفر ملة واحدة .

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

خاسرون إنْ أطعتُم بشراً مثلكم ، لكنه بشر ليس مثلكم ، إنه بشر يُوحَى إليه ، فأنا لا أتبع فيه بشريته ، إنما أتبع ما ينزل عليه من الوحى .

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

(١) أى : فى غيِّهم وضلالهم . قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٤٧) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٦٤) : « الغمرة فى اللغة ما يغمرك ويعلوك ، وأصله الستر . والغمر : الماء الكثير لأنه يغطى الأرض . والمراد هنا : الحيرة والغفلة والضلالة » .

إنهم ينكرون البعث بعد الموت الذى يعدهم به نبيهم ، لكن ما الإشكال فى مسألة البعث ؟ أليست الإعادة أهونَ من البَدْء ؟ وإذا كان الخالق - عز وجل - قد خلقكم من لا شىء فلأنْ يُعيدكم من الرفات أهون ، وإن كانت كلمة أهون لا تليق فى حق الله تعالى ؛ لأنه سبحانه لا يفعل أموره عن علاج ومزاولة ، إنما عن كلمة « كُنْ » لكن الحديث فى هذه المسألة يأتى بما تعارفتْ عليه العقول ، وبما يُقرِّب القضية إلى الأذهان .

﴿ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

﴿هَيْهَاتَ .. ﴿٣٦﴾﴾ [المؤمنون] اسم فعل بمعنى بَعُد ، يعنى بَعُد هذا الأمر ، وهو أن نرجع بعد الموت ، وبعد أن صِرْنا عظاماً ورُفَاتاً .

والكلمة فى اللغة إما اسم أو فعل أو حرف : الاسم ما دَلَّ على معنى مستقل بالفهم غير مرتبط بزمن ، فحين تقول : سماء نفهم أنها كل مَا علاك فأظلَّك . والفعل كلمة تدل أيضاً على معنى مستقل بالفهم لكنه مرتبط بزمن ، فحين نقول : أكل نفهم المقصود منها ، وهى متعلقة بالزمن الماضى ، أما الحرف فكلمة تدل على معنى غير مستقل بذاته ، فالحرف (على) يدل على معنى الاستعلاء ، لكن استعلاء أى شىء ؟

فالمعنى - إذن - لا يستقل بذاته ، إنما يحتاج إلى مَا يوضحه ، كذلك (فى) تدل على الظرفية ، لكن لا تُحدد بذاتها هذه الظرفية ، كذلك من للابتداء وإلى للغاية ، ولكل من الاسم والفعل والحرف علامات خاصة يُعرف بها .

وغير هذه الثلاثة قسم رابع جاء مخالفاً لهذه القاعدة ؛ لذلك

يسمونه الخالفة وهو اسم الفعل مثل (هيهات) أى بَعُد ، فهو اسم يدل على معنى الفعل دون أن يقبل علامات الفعل ، ومثله شتان بمعنى تفرق ، اف بمعنى أتضجّر .. الخ .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عنهم أنهم قالوا :

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾

لقد استبعد هؤلاء أمر البعث ؛ لأنهم لا يعتقدون في حياة غير حياتهم الدنيا ، فالأمر عندهم محصور فيها ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا .. (٣٧) ﴾ [المؤمنون] إن : حرف نفي يعني . ما هي ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ .. (٢) ﴾ [المجادلة] يعني : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدْنَهم .

وقوله : ﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا .. (٣٧) ﴾ [المؤمنون] قد يظن البعض أنهم بهذا القول يؤمنون بالبعث ، لأنهم قالوا : (نموت ونحيا) فكيف يُنكرونه ؟

والمراد : نموت نحن ، ويحيا من خلف بعدنا من أولادنا ، بدليل قولهم بعدها : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾ [المؤمنون]

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) ﴾

يعني : الرجل الذى أخبركم بمسألة البعث ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .. (٣٨) ﴾ [المؤمنون] وعجيب منهم هذا القول ، فهم يعرفون الله ويعترفون ﴿ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [المؤمنون] فكيف يكون إلهاً دون أنْ يُبلغكم رسالة على لسان رسوله ؟ وإلاَّ ، فكيف ستعرفون منهج الله ؟ قالوا : بالعقل ، لكن العقل فى هذه المسألة لا يصح .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى : هَبْ أننا نجلس فى حجرة مغلقة ودَقَّ جرس الباب ، لا شكَّ أننا سنتفق جميعاً على أن طارقاً بالباب ، وهذا يسمى « تعقل » ، لكننا سنختلف فى التصوُّر : أهو رجل ؟ أم امرأة ؟ أم طفل ، أهو بشير أم نذير ؟ .... الخ .

إذن : نتفق حين نقف عند التعقُّل ، لكن كيف نعرف مَنْ بالباب ؟ نجعله هو يخبر عن نفسه حين نقول : مَن الطارق ؟ يقول : أنا فلان ، وجئتُ لكذا وكذا . فمَنِ الذى يبلغ عن التَّعقل ؟ صاحبه .

وكذلك عقلك يؤمن بأن الكون له خالق واجد تدلُّ عليه آيات الكون ، فأنتَ لو نظرتَ إلى لمبة الكهرباء هذه التى تنير غرفة واحدة ، وتأملتَ لوجدتَ وراءها مصانع وعدداً وآلات وعمالاً ومهندسين ومخترعين ، ومع ذلك لها قدرة محدودة ، ولها عمر افتراضى وربما كسرت لأىِّ سبب وطفئتْ .

أفلا تنظر كذلك إلى الشمس وتتأمل ما فيها من آيات وعجائب ، وكيف أنها تنير نصف الكرة الأرضية فى وقت واحد دون أنْ تتعطلَ ودون أنْ تحتاج إلى صيانة أو قطعة غيار ، ومع ذلك لم يدَّعها أحد لنفسه ، أفلاً يدل ذلك على أن وراء هذا الخَلْق العظيم خالقاً أعظم ؟

إذا كنا نُؤرِّخ لمكتشف الكهرباء ومخترع المصباح الكهربائى ، ونذكر ماذا صنع ؟ وكيف توصَّل إلى ما توصَّل إليه ، أليس يجدر بنا أنْ نبحث فى خالق هذا الكون العجيب ؟

إنك لو حاولتَ أنْ تنظر إلى قرص الشمس أثناء النهار ، فإنَّ نظرك يكلُّ ولا تستطيع ، وإذا اشتدت حرارتها لا يطيقها أحد ، مع أن بينك وبين الشمس ثمانى دقائق ضوئية ، كل ثانية فيها ثلاثمائة ألف كيلومتر ، فأىّ طاقة هذه التى تنبعث من الشمس ؟